نساء صوفيات

٢ — معاذة العدوية

للأستاذ فوزى عرفة

من الصوفيات الأوليات ،والرعيل السابق ،الذى تجمل بالأخلاق الفاضلة،وتزين بالمكارم العربية السامقة ، التى تجمعت خصائصها ، وتمثلت صفاتها النقية فى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام ومن تبعه من الخلفاء الراشدين وباقى التابعين وتشبه بهم المسلمون فتركوا لناهذة النماذج الحية للتجارب الإنسانية الدقيقة التى تمتلىء ثراء وتفيض قوة وحيوية .

وبين اسم معاذة العدوية ورابعة العدوية صلة ينبغى أن تزول أولا من الأفهام ، فكلتا الصوفيتين الجليلتين تحملان لقب العدوية ، يوحى هذا الإسم بانتسابها إلى قبيلة واحدة وهى « العدوية » مع أن الأمر يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير .

أما رابعة العدوية فكما أجمع « ابن خلكان » فى « وفيات الأعيان » و « ابن تغرى بردى » فى « النجوم الزاهرة » هى مولاة آل عتيك ، وعتيك هو بطن من الأزد ، وقد كانت تسكن البصرة ، والأزد بطن من « العرب البائدة أو العاربة » لا من العرب المستعربة، وهى تنتمى إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان فهى من القحطانيين لا العدنانيين . وقد ولد لآل عتيك بنو عدوة فسميت رابعة بالعدوية إلى هذا الإنتساب ولهذا يسميها الجاحظ « رابعة القيسية » نسبة إلى قيس فى كتاب البيان والتبيين ولا يلحق اسمها بالعدوية بل ويقصدة فقط على معاذة لا على رابعة القيسية إلا أنها اشتهرت بهذا الإسم فيما بعد عند من أرخوا لها .

وأما معاذة العدوية فهى من قبيلة عدى التى ينتسب إليها عمر بن الخطاب والتى

تلتقى مع الرسول فى كعب بن لؤى بن غالب بن قريش ، ومن هنا كانت نسبة عمر إلى هذه القبيلة ، كما ورد فى صحيح البخارى «مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص القرشى العدوى » فالنسبة هنا بالعدوى إنما أتت من « عدى » لا من بنى عدوة ومن هنا فلا صلة بين « معاذة العدوية » و « رابعة العدوية » إلا من طريق التصوف فقط أى أن كلا منهما صوفية وأما من حيث الإسم فالتشابه يجىء من النسبة اللفظية التى توحى بإيجاد صلة بين الصوفيتين الجليلتين .

على هذا يمكن لنا أن نتطلع إلى هذه القبيلة الماجدة قبيلة «عدى» فقد كان منها فى الإسلام طائفة سباقة إلى دخول الدين الجديد . كان منها نعيم بن عبد الله النحام من بنى عدى بن كعب الذى تنافر معه عمر بن الخطاب العدوى القرشى فلفت نعيم نظره إلى إسلام أخته فاطمة بنت الخطاب فاشتد غيظ عمر وكان هذا سبباً فى إسلامه .

ونحن نعرف عن معاذة العدوية أنها امرأة «صلة بن أشيم العدوى» فهو من قبيلتها أيضاً ولهذا ينتمى إليها بصلة القرابة وكان صلة هذا ذا خوف وورع وتقوى وتضحية وإيثار وفهم للقرآن الكريم وتثبت من آياته الكريمه .

فمن خوفه : أنه كان يقول إذا مر بقوم يلعبون « أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فقطعوا النهار فى اللعب شغلا عن الطريق وناموا ليلا متى يصلون إلى مقصدهم ؟ » فكأنه كان ينظر إلى الحياة — إجمالا — على أنها دار سفر قد تهيأ لجوّابيها أن يستعدوا لها حتى ينتهوا إلى مبتغاهم ، وهو فى ذلك يردد قول الرسول «وكأن الذين نودع من الأموات سفر ، عما قليل إلينا يرجعون » .

ومن صبره : ور باطة جأشه وحسن تأسيه فى الأمور أن جاءه نبأ موت أخيه فى بلاد بعيدة فقال رضى الله عنه « قد أخبرنى الله تعالى بذلك : قال تعالى إنك ميت وإنهم ميتون » فهذا وجدان إنسان فاضت نفسه بالمعرفة الحقة والإيمان فى معانى الحياة والبعث وحسن التثبت من قضائها وبلائها .

ومن ورعه : أنه كان يصلى حتى يزحف إلى فراشه رضى الله تعالى عنه .

والغالب أنه توفى فى أول المائة الثانية من الهجرة هو وزوجه « معاذة العدوية » .

* * *

ولدت معاذة العدوية فى المدينة المنورة حيث انتقلت إليها هجرات المسلمين من مكة وقدر لها أن تشهد آخر الفئة الأولى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنها أدركت عائشة رضى الله عنها وروت عنها أربعة أحاديث أو أكثر على خلاف فى ذلك . وإذا كانت عائشة قد توفيت سنة ست أو سبع أو ثمان وخمسين بعد الهجرة كما ورد فى كتاب « نور الأبصار » للشبلنجى فإنها تكون قد لحقتها فى طور طفولتها فى الغالب ولو أننا لا نستطيع أن نجد ما يضىء لنا سبيلنا فى هذا المجال .

على أن وجودها بالمدينة المنورة واتصالها بآل البيت وانتهاءها بالنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلها تتعلق منذ الصغر بالأحاديث النبوية وتروى عن عائشة أيضاً .

وقد جذبت البصرة بجانبها الورع معاذة العدوية وزوجها صلة بين أشيم العدوى ولا ندرى لماذا انتقلت معاذة من المدينة إلى البصرة : ولعل هناك أسباباً عديدة تدعو إلى هذا الأنتقال منها أن المدينة أصبحت موّارة بالمذاهب السياسية العديدة ومنها دواعى الجهاد التى تتطلب الهجرة والتنقل أو لعل هناك أسباباً أخرى نجهلها دفعت هذه الأسرة إلى النزوح إلى البصرة . وغاية ما نعرفه أنها أقامت بالبصرة . ولهذا يذكرها الجاحظ فى « البيان والتبيين » تحت باب « نساك البصرة وزهادها » فيقول « عامر بن عبد قيس وبجالة بن عبدة العنبريان وعثمان بن أدهم والأسود ابن كلثوم وصلة بن أشيم ومذعور بن الطفيل . . . . ومن النساء : معاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم ورابعة القيسية .

وهكذا عاشت معاذة فى البصرة وتوفيت بها حيث لا نعرف تاريخ وفاتها والأغلب كما قدمنا أنها ماتت فى أول المائة الثانية من الهجرة .

تصوفها :

(١) الشوق : من مشاهير الصوفية فى البصرة زمن معاذة العدوية الحسن البصرى ومن نحا نحوه فى الخوف من الله والزهد فى الحياة الدنيا والإقبال على الله بكنه الهمة وقد أخذ هؤلاء الصوفية تصوفهم من الرسول عليه الصلاة والسلام ومن تابعيه كما هو ثابت فى طرائقهم وأعمالهم ولم ، يكونوا يعرفون للتصوف معانى واصطلاحات . والغالب أن المؤرخين عندما بدءوا يكتبون عن التصوف بحثو عن هذه المصطلحات وكانوا فى ذلك طرائق قددا وشعباً مختلفة ، ذوى ثقافات متعددة ، ولهذا نجد البعض يستعمل مصطلحات لايرضى عنها الآخرون ، فكان بعضهم يتحرج أولا من استعمال كلمة محبة ، وفى ذلك يقول الأستاذ ماسنيون كان عبدالواحد بن زيد يرى أن كلمة « عشق » هى الوحيدة المعترف بها فى التحدث عن الله وكان يرفض كلمة محبة وأما مالك بن دينار ومضر القارى وذو النون المصرى فيقترحون اللفظ « شوق » والحقيقة أن الصوفية عندما تذوقوا التعبد والوصل ومارسوا العبادة والزهد لم يكن فى ذهنهم تعريف لهذه الأسماء المختلفة والمعانى المتعددة وكل ما هنالك سمات ظاهرة تمثلوها فى أعلى قمة السموق مقربة إلى الله ومسعفة لهم ساعة اللقاء . ومن هؤلاء الصوفية معاذة العدوية وغاية ما يمكن لنا أن يسمى به مذهبها هو أنها كانت مشوقة إلى لقاء الذات الإلهة ومن ثمة يكن لنا أن نقول إنها كانت تدعو إلى طريقة قريبة من دعوى « الشوق » فقد كان الرسول يعلم عمار بن ياسر دعوات منها «اللهم إنى أسألك النظر إلى وجهك الكريم وشوقا إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة » وقدعرف الصوفية الشوق بقولهم « اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب وعلى قدر المحبة يكون الشوق » وفرق أبو على الدقاق بينه وبين الإشتياق فقال : الشوق يسكن باللقاء والرؤية ، والإشتياق لا يزول باللقاء . وفى معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

وقد ضربت معاذة العدوية فى الشوق مثلا عالياً فكانت إذا تقلب عليها الليل هشت للقاء وإذا جاء النهار استبشرت بالموت ولهذا وصفها صاحب الطبقات الكبرى فقال « كانت إذا جاء النهار قالت : هذا يومى الذى أموت فيه فما تنام حتى تمسى وإذا جاء الليل قالت هذه ليلتى التى أموت فيها فلا تنام حتى تصبح وكانت إذا غلبها النوم قامت فجالت فى الدار وهى تقول : يا نفسى ! النوم أمامك ثم لا تزال تدور فى الدار إلى الصباح تخاف الموت على غفلة ونوم .

(٢) الورع وكثرة التهجد : يضاف إلى ما أسلفنا شدة ورعها وكثرة تهجدها وطول بكائها ، وصفها الجاحظ فقال « فإن تهيأ مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية والشجا الخارجية » ويروى عنها أنها كانت تصلى فى اليوم والليلة ستمائة ركعة ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاما ولما مات زوجها لم تتوسد فراشاً حتى ماتت .

وهكذا كان التصوف عند هذه الصوفية المؤمنة السباقة، نوعاً من الوسيلة والقربى يقربها إلى الله سبحانه وتعالى ، ويضفى على نفسها لوناً من الهدوء والراحة يعصمها من الأنخراط فيما سلك فيه المقبلون على الدنيا من لذات وماديات حتى إذا تهيأ لمن جاء بعدها أن يسلك طريقها سار فيه إلى مبتغاه فكان بينهم التنافس فى العمل الصالح وكثرة التأمل وطول التهجد وممارسة التذوق والوجد ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .